سيميائية العنوان في روايتي
تلك العتمة الباهرة "و"ليلة القدر" للطاهر بن جلون

الباحثة: بومدين خيرة
جامعة سيدي بلعباس

ظل المتن ردحا من الزمن سيد الموقف متجاوزا ابداعية العتبات النصية،غير أن بمجيئ جيرار جينات قلب المعادلة ليزيح لعنة التهميش على العتبات ،وفي مقدمتها العنوان الذي أخضع النقاد للسلطته وكسر المألوف متجاوزا النص ومقصدية المؤلف التي أضحت دستورا إبداعيا وجب اتباعه من طرف النقاد المحنكين ،فهذا الاتجاه أفرز دراسات طبعت عليها الجدة والحداثة مثلت بداية نقد جديد على أنقاض النص متلاشي فاتحا المجال لسلطة العنوان.

1- العنوان وخاصيته الاسمية:

تستوقفنا الجملة الاسمية محاولة معرفة أبعاد حضورها والخصائص التي تشمل نظامها بأكثر دقة ووضوح ،وهي "الأصل" على حد تعبير عبد المالك مرتاض[1].فكانت رواية"تلك العتمة الباهرة" جملة اسمية معرفة ب (ال) مسبوقة باسم إشارة ،كل ذلك دلالة على أن الأسماء في مجملها توحي بالثبات والاستقرار الدالين على أهمية ما تعنيه الذات في جوانبها تماسكا للنص مضبوط بوعي الذات بدقائق جزئياته وهيمنة العقل في تصميمه.

كما يؤول بنا مقام الحديث عن الأسماء إلى تجلية بعض من خصوصياته من خلال مفردتي:العتمة/الباهرة ،فالأولى توحي بفظاعة الموقف وصفة الباهرة تعمق حقيقته وذلك ما تستجلبه جملة"تلك العتمة الباهرة" تمثل الاستكانة إلى محورين:(الخير والشر)،(الظلام والنور)،(الكابوس والحلم)، ليبقى الصراع مستمرا ليمثل طبيعة الوجود والحياة ،فتتمحور حياته عن تجربة ذاتية في انفراده بذاته وكشفه في استظهار ما عاشه وعانه وسط جحيم العتمة وسجنها فكان موتا وخوفا ورعبا مبهرا تجاوز المعقول والممكن ،وصور ظلم السلطة وتجبرها وانتظار غد يظل مجرد أمل ترجمه

هذا الشكل:

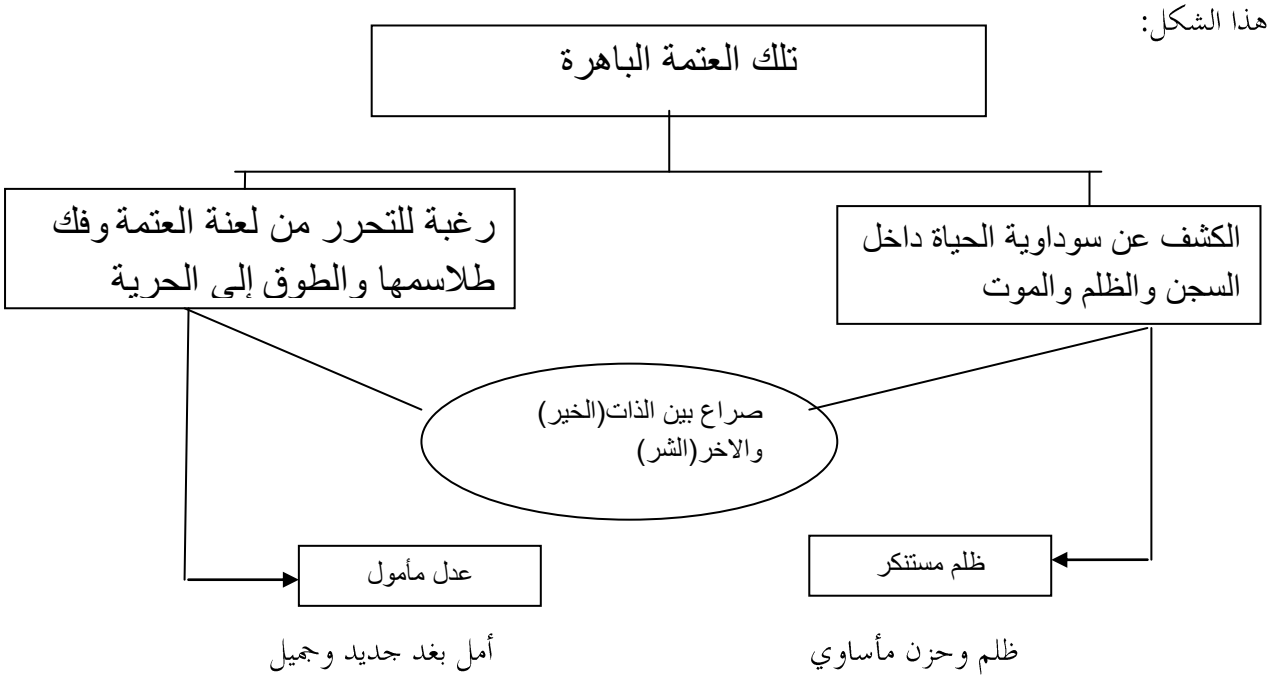

رغم سوداوية الحياة وجحودها واستمرارية السواد والظلمة والعتمة يبقى الحلم قائما يصارع أهوال الظلم والموت ،لتؤكد الذات على البقاء والتغيير مستبشرة بغد مشرق،وجميل.

2- البنى الافرادية وخصائصه

إن الإيغال المفرط في البحث عن خصوصية المفردة دون شذوذها عن النص،بل في تآزر دلالتها مع باقي المفردات،يتولد عنه معرفة سلسلة من العوامل التي دفعت بالناص لاستحضارها ،وما يؤثره من نفسه في تعالق هذه المفردة في العنوان مع غيرها،وما تستقطبه ليصبح اختيار العنوان لعبا بالكلمة بامتياز مثمر"ليحول نحاس الكلمات الرخيص، إلى ذهب العبارة الشعرية المتألق"[2]

لتعطي للكلمة حياة جديدة بعد خمودها في زوايا معاجم اغبرت لسالف الأزمان وطول عهد مكوثها فيه،وما يمكن قوله هنا ينطبق على عنوان"تلك العتمة الباهرة" لنحاول إبراز بعض المفردات وما أثمرته من دلالات وما اكتسبه كذلك من جدة في دلالة معطاة لها وفقا للنص،فوقفنا على مفردتين:

العتمة:تعد العتمة من أكثر الرموز تشبعا بالهموم والأحزان والكآبة العمياء التي تدفع إلى تمزق الذات وغرقها في وحل الظلام فطاهر مولع بالليل والعتمة إلى حد الوله به،ليغدو بيت الملاذ الأوحد للحوار الداخلي وملاحقة الذات فيهاوباكسابها أريج الخلاص،عن طريق انفصاله عن الواقع المتبرم منه،أو إدماج معاناته فيه،ذلك أن العتمة تمثل رحلة ليلية لضياع الإنسان واغترابه المأساوي وسط عجرفة الأنظمة والسلطة .ويبتعد مدلول العتمة قليلا ليحاور مدلولا أكبر توقفا لمعرفة حقيقة الأمل متمثلة في مفردة

الباهرة:تمثل الانفتاح لاكتساب الذات قدرة لالتحامها مع الواقع ومعالجته نوازعها فيه غير أنه من الجلي أن تنتهي العتمة عند الطاهر بن جلون كشريط سينمائي"يربط بين الأزمنة والأمكنة متصلة وحية"[3] ليتابع فيه قضايا الإنسان في خضم الوجود المعتم.

الحيز وخصائصه:

إن مصطلح الحيز يدل على المكان الذي يأخذ تنوعا ،وتفاوتا كبيرا في دلائله ،وذلك حسب الدراسات التي تروم البحث فيه كل حسب طريقته، وإذا سلمنا أن الحيز يتلاقى في دلالته مع المكان فلأن هذا الحيز يرجع"في صلته بالذات المبدعة والمتلقية ،ليتخذ من الصفات المتشابكة ما يجعله من المقولات الأكثر تعقيدا على مستوى المعنى والمبنى"[4] وهذا يعني أنه يجب علينا أن نعمق من توضيح حقيقته التي تدل تارة عليه وعلى غيره أحيانا،وذلك حسب الدراسة السيميائية المتوخاة هنا.

فالحيز عند عبد المالك مرتاض"ليس المكان بالمفهوم التقليدي للزمان ،وإنما هو تصور يفترض عوالم الحيز المتشجر عن هذا الحيز الأصل ،الذي ينبغي أن تكون له أبدا"[5]وبالتالي هو يخضع لعوامل المكان وحدوده ،وجغرافية وغيرها مما يرتبط قصرا على المكان ،وشاهدا لحوادث الزمان،فهو يحتل المكان ولكنه لا يحتله كله،فاتجه بذلك وجهة أخرى"بحيث يكون الحيز اتجاها وبعدا ،ومجالا،وفضاءاوامتدادا،وخطا في أي شكل من الأشكال الهندسية الكثيرة.....كأنه عالم أسطوري أو خيالي مفتوح"[6]ولا محبصا عن القول بأن هذا المصطلح الذي وقرت شموليته في الدراسات السيميائية وتلخيصا لهذه التعددية فهو عبارة عن"مفهوم كيفي يستحيل فهمه ذهنيا"[7] فيحوي عنوان (تلك العتمة الباهرة):

حيز الضياع:انه حيز ما يفتأ أن يكون إلا استسلاما،فيصبح لضياع الذات ضياعا للإنسان وسط مجتمعات تضج بنغمة القهر والغلبة والتسلط على حقه،وكرامته وإنسانيته .فتستعبده النظم الظالمة وتجهض طموحه ،فيؤثر الضياع في عالم غير عالمه ،يجهل فيه مصيره،وطريقه،يتهدم وجوده،ويتعين فقد حقيقته بين ما رآه وعاشه،وما فقده وما اكتسبه ،وما اعتلج في خاطره معلنا عن حالة ضياع بين خصوم هي :الدنيا والواقع والأنظمة.

الزمن الأدبي:

:إن هذا العنصر كثيرا ما أثار اهتمام الدارسين له إذ به يعرف وجهة نظر النص وخطوط سيرها،وكيف تتم معالجة النص وفقها،ليستأثر بالأساس جل اهتمام السرديين له،ولا تخلو المدارس السيميائية منه،إذ شأنها شأن الآخر فالزمن قد يفعل فعله في توظيف أبعاد أكثر توا شجا بحالات النفس ،ومدى ما تثيره فيها من دلالات تؤثر في الزمن ذاته.

غير أن الزمن لا ينفصل عن الحيز المذكور سابقا فكلاهما يمتدان في كل ما تحيا فيه دواتنا فالزمن "مستنبط من حدوث العلاقة بين الحيز والزمن ...إذ يستحيل أن يفلت كائن ماو فعل ما ،وتفكير أو حركة من تسلط الزمنية"[8] فيصبح الزمن أكثر فاعلية لأنه يعد"أغنى من فكرة الوجود"[9]،غير أن الزمن المراد دراسته في عنوان روايتنا ليس هو الزمن التقليدي بل"زمن أدبي خالص،تختلف رؤيته،ووظيفته وطبيعته عن ذينك الزمنيين(الفلسفي والنحوي)...هو عالم بدون حدود ،وأفق بدون نهاية"[10]

فيحظى الزمن الأدبي بمفهومه العام"فالمفهوم الزماني يحمل في طياته دلالات زمنية منقطعة أو ممتدة ،حية أو ميتة وكلها دلالات متسلطة ،تجعل من هذا الزمن آلة لها من قدرة التو لج، و التسلط مما يجعلها تسمو عن الزمان بمعناه القاصر" [11] و لما كان الزمن يقتضي أثارنا حيثما وضعنا الخطى، ليكون و جودنا نفسه لنلمس من خلال العنوان زمنا واحدا سائدا (كان جزءا من الذات) اعتاد الأمكنة و الأشخاص ليسلمهم إلى الفشل و الإخفاق و المجهول و الموت فكان

الزمن الحالك : يوشك أن يطغى على هذا الزمن على حياة الذات(السجين) كلها و من مميزات العتمة الظلام، المجهول، الخوف الذي يوشك أن تملا منه النفس به ثقة بأنه لا وجود لغد أو نهار مشرق أكثر فيض و طمأنينة، حيث اتسعت أفاق العتمة و توقف الزمن فيها فتحرر الزمن من سلطة الزمن فجعل الذات تتلاشى كليا، و تغرق في حزنها الذي أرهقها محدثا اللاتوحد بين الجسد و الروح الذي يبرز التمنق الفعلي العتيق الذي ارتوت منه الذات و نهلت منه .

شعرية الأصوات و أثرها في تشكل المعنى :

إن قضية الأصوات و أثرها في تشكيل المعنى، من الأمور التي لا يمكن التغاضي عنها و عن قيمتها الجمالية التي تضفيها على النصوص و التي تقيم بدورها حقلا من الدلالات التي تنبعث من خلال و قعها، حسب المتلقي و انسجامه مع الجو العام للنص .

فنجد أن الأصوات التي سيقت في العنوان لا تعد مجرد عدم و إنما هي ارتباط حاصل بين الصوت و الشعور، فتكون الأصوات التي نسج منها العنوان محددة ملامح أو طابع توجه النص بصفة عامة إضافة إلى أنها أنماط، تقرا من خلالها المعاني و التي توحي إليك بما يريد الراوي إبلاغه "فقد تكون الأصوات على نسق معين ثم تكون مؤلمة لنفس السامع، سواء كانت تلك الأصوات ضئيلة أو عظيمة" [12] فتمت بالتالي وقع ولابد يحدثه النسيج الصوتي الذي قام ببنائه الروائي لتعبر عن حالات تراوحت بين الآمال و الآلام "ففاعلية التشكيل الصوتي هي قدرته على خلق إيقاعات متنوعة و نشاط الإيقاع، هو نشاط التشكيل الذي يدخل في تكوينه" و هنا يكمن المقدار الذي ينجلي فيه شعرية العنوان و اختيار الروائي له .

ليتشكل العنوان وفق إيقاع يشابه إيقاع و حركة و نبض أجسادنا و ضربات قلوبنا، و خلجات أرواحنا، حدده تأثير نفسي في إطار صوتي و دلالي، حيث" لا يعثر على التوافق الدقيق بين الصوت و الدلالة فحسب بل على طريقة التحام المستوى الصوتي بمستويات دلالية"[13] و لتحقيق هذا الانسجام نعرض بعض الأصوات لتجلي بعض الحقائق التي اعتورت

روايتنا "تلك العتمة الباهرة" فكان التعامل معه يقتصر على بعض الأصوات لكونها حملت إحساسا هائما ضائعا حزينا، يريد أن يتجسد فكان مثلا:

اللام : يدل على الانطباع بالشيء بعض تكلفه" [14] كما يوحي بالتماسك رغم المعاناة و التمزق الحاصل للذات

التاء : يوحي بلمس بين الطراوة و الليونة، و يدل على الرقة و الضعف، كما يوحي بالشدة و الغلظة و القساوة و القوة"[15]

فكلاهما يوحيان بالاستمرار رغم سوداوية الواقع و مرارته أن حاضرية الذات هو حاضر التيه و المعاناة و الظلم و القساوة النابعة من هواجس البحث عن الحرية و العدالة و عالم أكثر صفاء و نقاء

التشاكل:

تختص السيميائية في درسها بالاهتمام بالكشف عن تشاكل العلامات و اختلافها، فهي تسعى نحو تحديدها، ووصف حركتيها فالتشاكل في أصل وضعه ليس إجراء سيميائيا محضا، و إنما هو ماخود من العلوم الفيزيائية " فأول من نقله إلى ميدان اللسانيات هو غريماس"[16]اذ هو ماخود من (الأصل اليوناني gisos) الآخر (topos و معناه المكان، فقيل (isotopie)و كان هذه التركيبة تعني المكان المتساوي

غير أننا نلمح غريماس حدد مجاله، فحصره، في نوع واحد و هو التشاكل المعنوي، و عرفه بأنه "مجموعة متراكمة من المقولات المعنوية (أي المقومات) التي تجعل قراءة متشاكلة للحكاية" [17]

و أدرك (فرنسوا راستيه)ما لهذا التحديد من تقييد لإمكانية التشاكل فوسع مفهومه بجعله أكثر شمولية و عرفه بأنه كل"تكرار لوحدة لغوية مهما كانت"[18]

و يقضي بنا المقال إلى رصد تشاكلا الوارد في عنواني روايتنا "تلك العتمة الباهرة" و"ليلة القدر" فيبرز على النحو التالي :

العتمة \ ليلة : مقولة الضياع

يتشاكل المقومان في زمن السكون و الفاجعة و الضياع فالليل رحلة العذاب و الخوف من الغد، و هواجس للكوابيس الغموض، و النظر إلى حياة بعيون معتمة الفت الظلام و تعودته، و صار جزءا من مستقبل مجهول معتم لا يفقه لغة النور و الصباح

التناص :

إن مصطلح التناص من أكثر المصطلحات دراجة في الساحة النقدية المعاصرة ، فهو المصطلح الأكثر غنى لما يشير إليه من ارتباط وثيق بين النصوص و تداخل فيما بينها، و قد أريد به كذلك مصطلح الحوارية الذي استخدمه" باختين و استعاض عنه تودوروف بمصطلح التناص"

كما ا نا أول استخدام فعلي لمصطلح التناص كان مع الباحثة جوليا كريستيفا بين سنة 1966-1967 على أنه"ترحال للنصوص وتداخل نصي"[19]فيستحيل أن يكون الإبداع في الأدب خلق من عدم لأن كل إبداع هو امتداد لإبداعات سابقيه فهو"مجرد تحويل فضاء دلالي قديم إلى فضاءات دلالية جديدة لا منتهية"[20] ويتجمع في ذاكرة المبدع كل التراث الإنساني القديم بطريقة اللاوعي فتتشابك في أعماقه جملة من الدلالات اللامنتهية المترسبة فيه.فتبعث الية التناص كإجراء سيميائي في استنطاق العنوان لاستحضار ما هو مغيب ،كما هو في عنوان روايتنا "ليلة القدر"لتنفتح على منافذ تناصية

أولها:

مع القران الكريم:فالعنوان يتناص مع قوله تعالى"إنا أنزلناه في ليلة القدر" هذا ما يبدو ظاهرا ،لكن السؤال :هل ثمة تشابه بين مدلول التركيب في الموضعين :القرآني والروائي ،ففي السياق القرآني جعلها الله تعالى أعظم منزلة وأرفع مكانة في قوله تعالى"ليلة القدر خير من ألف شهر"فهي لا تضاهي كل ليالي ألف ليلة وليلة.

أما ليلة القدر "المعنونة بها روايتنا تجاوزت ذلك كله ،وأخذت منعطفا آخر،رسمت حدودها وفق رؤيوية أرادها بن جلون أن تكون ليلة الاعتراف والتكفير عن الذنب والخطيئة من قبل الوالد ،بل كانت أكثر من ذلك كانت ليلة التطهير والتحرير من عبودية تقمص البنت لشخصية الولد بكل طباعه وتصرفاته إلى درجة فقدان الهوية الأنثوية ،فليلة القدر"عنوان لتغيير مسار قدر مرفوض من قبل سلطة الأب والأعراف والتقاليد كما نجد تناصا آخر في اتخاذ ليلة القدر في الحكي الشعبي أنها ليلة تحقيق الأمنيات والأحلام ."فمع التناص يغدو للعنوان قابلية مذهلة على الانزلاق من معنى إلى آخر" [21] بذلك يتوصل العنوان بالتناص ليوسع من أفقه الدلالي العنوان و المقدمة السردية (الديباجة)

إن قوة كل عمل إبداعي تكمن في تميزه و تفرده بالجدة و الإبداع ذاك كان طموح العنوان، و من غير ادعاء ليكون السبيل الأمثل ، ليحقق لذة الغواية قبل ولوج دهاليز النص، و متى لاح أفق العنوان غالبا ما كانت تعقبه المقدمة السردية، يستعين بنا لتحقيق غايته ، و إجبار النص على البوح بمكنوناته، و كأنه جمع بينهما عقد مبرم و ميثاق "لا يستطعان أن يتحررا من مصاحبة الآخر "[22] لقدرتهما و كفاءتهما لفك مغاليق النص فتتبدى كل الطلاسم التي كان لا يفقه كنهها المتلقي .

و إن كان ذلك كذلك هل احتوت المقدمة العنوان؟؟ و هل استطاع العنوان أن يفرض وجوده على المقدمة؟؟ أم تجاوزته؟؟

و ليس من المكابرة القول أن الأصعب ما في الحكي بدايته، فبدأت رواية "ليلة القدر" .

بخلاف المعهود "ما يهم هو الحقيقة "[23] أي حقيقة هذه التي تحاول العبارة أن تستجلب عطف المتلقي لها أم الطاهر يستفزنا بهذه الديباجة لكي يشدنا لمواصلة رحلة قراءة الرواية، فالبداية لم تذكر شيئا عن العنوان و كأنها تريد أن تخلخل ثقة المتلقي فتغير مسار الحكي المألوف، و تصرفنا عن العنوان، أن بحث عن الحقيقة التي تحدث عنها و هو يفتتح الديباجة . ثم يوصل فيقول "سأتكلم سأدلي بالكلمات" [24] لتزداد صعوبة مهمة العنوان، و حجبته بوشاح الغموض دالا بهام أكثر في قولها "قصتي ليست عظيمة و لا تراجيدية هي ببساطة غريبة" [25] فلا وجود إذن لتلك قدسية "ليلة القدر" بل هناك دهشة و حيرة، و قلق و إدخال المتلقي في متاهة الخوف و الفزع، و كأن بن جلون يريد أن يتخلص من لعنة الحكاية و يسلمها إلى القارئ ليوضح له أن الحياة ليس كما صاغها العنوان بل عالم مرعب جدا . باعثا التخيل في قوله " إن الذين جازفوا بالاطلاع على حكاية طفل الرمال و الريح هذه لاقوا بعض المتاعب : فبعضهم أصيبوا بفقدان الذاكرة و اشرف آخرون على الهلاك" [26] فالراوي عاد مرة أخرى إلى رواية "طفل الرمال" استرجع العنوان المغيب لان كل العناوين يتشاكلان في نفس الحتف و عالم الرواية كله غموض و أسرار العنوان "ليلة القدر" لا يبوح بالحقيقة فالديباجة جاءت تصحح عكس مبتغى العنوان في قوله"حياتي ليست حكاية ،حرصت على أن أصحح الوقائع وأفشي لكم السر المصون تحت حجر أسود في دار عالية الجدران داخل درب مغلق بسبعة أبواب"[27] لتنتهي الديباجة بأسطورة الرقم سبعة.

وأخيرا بعد هذا اللقاء القصير مع العنوان ،ليستوقف الفكر برهة معلنا عن لحظة ميلاد لعتبة قالت القليل من كثير مما يتسع المجال لتفصيل مسهب فيه،فلا يمكن من خلال هذا البحث بلوغ الغاية مهما تفاءل المرء في ذلك ليؤيد بعبثية السؤال

القائل:هل يطمح العنوان إلى تأسيس خطاب مستقل بذاته عن النص؟ ليعلن هذا السؤال عن النهايات التي لاتنتهي والبدايات التي لا تجيء ليبقى العنوان يقول كل شيء ليقول لا شيء.

قائمة المصادر والمراجع:

1-أحمد محمود:سيميائية العنوان في رواية وادي الظلام لعبد الملك مرتاض أنموذجا،مجلة القلم، ع 18،2001،ص254

2-صلاح عبد الصبور:كتابة على وجه الريح،الوطن العربي للنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،ط1،1981،ص186

3-فايز الداية:جماليات الأسلوب،الصورة الفنية في الأدب العربي،دار الفكر،بيروت،ط2،1995،ص64

4- حبيب مونسي:فلسفة المكان في الشعر العربي،اتحاد كتاب العرب،دمشق،د،ط،2001،ص127

5- عبد الملك مرتاض:بنية الخطاب الشعري،دراسة تشريحية لقصيدة "أشجان يمانية"،دار الحداثة،بيروت،ط1 ،1986،ص123

6- عبد الملك مرتاض:أ-ي،دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي"لمحمد العيد، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، د،ط،ص103

7- عبد الملك مرتاض:الأمثال الزراعية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجزائرية،الجزائر، د،ط،1982،ص63

8- عبد الملك مرتاض:أ-ي،دراسة سيميائية تفكيكية،ص121

9- غاستون باشلار:جدلية الزمن تر:خليل أحمد خليل،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،د،ط،1993،ص154

10- عبد الملك مرتاض:بنية الخطاب الشعري،ص157-158

11- عبد الملك مرتاض:الأمثال الزراعية الجزائرية،ص78

12- عمر فروخ:هذا الشعر الحديث،دار لبنان،بيروت،لبنان،د،ط،ص57

13- صلاح فضل:شفرات النص،دراسة سيميولوجية في شعرية القص والقصيد، دار الآداب،ب يروت، ط1 ،1999ن ص38

14- حبيب مونسي:توترات الإبداع الشعري،دار العرب للنشر والتوزيع،وهران،ط1، 2001، ص45

15- المرجع نفسه،ص40

16- محمد مفتاح:تحليل الخطاب الشعري،إستراتيجية التناص،المركز الثقافي الأدبي،الدار البيضاء،ط 3، 1992،ص19

17- عبد الملك مرتاض:نظام الخطاب القرآني،دار هومة،الجزائر،دط،2001،ص157

18- محمد مفتاح،تحليل الخطاب الشعري،ص21

19- رمضان الصايغ:في نقد الشعر العربي المعاصر،دراسة جمالية،دار الوفاء للطباعة والنشر،الإسكندرية،ط1، 1980، ص372

20- جوليا كريستيفا:علم النص،تر:فريد الزاهي،دار توبقال للنشر والتوزيع،المغرب،ط1، 1997،ص21

21- عبد الجليل مرتاض:اللغة والتواصل،دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر،ط1، 2000،ص163

22- خالد حسين خالد:في نظرية العنوان،تأويلية في شؤون العتبة النصية،التلوين للتأليف والنشر،دمشق، سوريا، دط، 2007،ص98

23- المرجع نفسه،ص351

24- الطاهر بن جلون:ليلة القدر،تر:محمد شركي،ط5 ،2002،ص05

25- المرجع نفسه،ص05

26-المرجع نفسه،ص06